الاجتماع الصوفي
عند الإمام ابن عجيبة (ت ١٢٢٤هـ)
من خلال كتابه (الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية للإمام ابن البنا السرقسطي)
" دراسة استقرائية وصفية "

د. أحمد حسن محمد حسن .
مدرس العقيدة والفلسفة – كلية أصول الدين – القاهرة .

ملخص بحث بعنوان :

الاجتماع الصوفي عند الإمام ابن عجيبة(ت ١٢٢٤هـ) من خلال كتابه(الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية للإمام ابن البنا السرقسطي) " دراسة استقرائية وصفية "

د. أحمد حسن محمد حسن .مدرس العقيدة والفلسفة – كلية أصول الدين – القاهرة .drahmedhassan2024@gmail.com

يتناول البحث استقراء وعرض المواضع التي تحدث فيها الإمام ابن عجيبة عن الاجتماع الصوفي وما يتعلق به من مسائل وذلك من خلال شرحه لمنظومة الإمام ابن البنا السرقسطي المسماه بـ" المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية "، والمسمى بـ " الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية".

واشتمل البحث على مقدمةٍ، وتمهيدٍ، ومبحثين، وخاتمة.

المقدمة وفيها: قضية البحث، وأسباب اختياره، ومنهجه، والدراسات السابقة، وخطته.

والتمهيد فيه الحديث عن كلٍ من:(الناظم والمنظومة – والشرح والشارح – أبيات المنظومة في الاجتماع الصوفي).

المبحث الأول:فيه الحديث عن مبادىء الاجتماع الصوفي عند الإمام ابن عجيبة.

المبحث الثاني: فيه الحديث عن آداب الاجتماع الصوفي عند الإمام ابن عجيبة.

ثم الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث، وأهم التوصيات، وعدد من المقترحات البحثية. ثم قائمة المصادر والمراجع.

Abstract of a research entitled:
(The Sufi meeting according to Imam Ibn Ajiba (d. 1224 AH Through his book (The Divine Revelations in Explaining the Original Discussions of the Sufi Way by Imam Ibn al-Banna al-Saraqusti)
"An inductive and descriptive study"
Dr. Ahmed Hassan Mohamed Hassan.
Lecturer of Doctrine and Philosophy - Faculty of Fundamentals of Religion – Cairo.
drahmedhassan2024@gmail.com
The research deals with the induction and presentation of the places in which Imam Ibn Ajiba spoke about the Sufi meeting and the issues related to it through his explanation of the poem of Imam Ibn al-Banna al-Saraqusti called "The Original Discussions of the Sufi Way", and called "The Divine Revelations in Explaining the Original Discussions".
The research included an introduction, a preface, two chapters, and a conclusion.
The introduction includes: the research issue, the reasons for choosing it, its methodology, previous studies, and its plan.
The introduction discusses each of: (the composer and the poem - the explanation and the explainer - the poem's verses in Sufi society).
The first section: discusses the principles of Sufi society according to Imam Ibn Ajiba.
The second section: discusses the etiquette of Sufi society according to Imam Ibn Ajiba.
Then the conclusion: which includes the most important results of the research, the most important recommendations, and a number of research proposals. Then a list of sources and references.

مقدمة البحث

الحمدُ لله كما علمنا أن نحمد، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد – ﷺ – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

اللهم أخرجنا من ظلمات الوهم، وأكرمنا بنور الفهم، وافتح علينا بمعرفة العلم، وحسن أخلاقنا بالحلم، وسهل لنا أبواب فضلك، وانشر علينا من خزائن رحمتك يا أرحم الراحمين . **وبعد،،،**

قضية البحث :

١–إن حقيقة الإنسان عند السادة الصوفية أنه مزيج من الجسد والروح، فالجسد من أصل أرضي يميل إلى جذب الإنسان إلى أسفل ، وأما الروح فهي من أصل إلهي؛ لذلك لديها نزعة لجذبه إلى أعلى، وبالتالي فإن حياة الإنسان صراع دائم بين القوتين : الوحشية المسماة بالنفس الإمارة بالسوء، والروحية المسماة بالنفس المطمئنة، فإذا تغلبت القوة الوحشية على القوة الروحية فإنها تفسد الإنسان، أما إذا تغلبت القوة الروحية على القوة الوحشية يكون الإنسان ناجحًا ومدركًا لمصيره الحقيقي للوصول إلى القرب والحضور الإلهي .

٢– وسبيل الإنسان لتحقيق الغلبة لقوته الروحية إنما يكمن فيما يقوم به ويلتزم به من الممارسات الدينية والتي هي عند السادة الصوفية على قسمين: أولهما: الشعائر التعبدية من صلاةٍ، وصيامٍ، وزكاةٍ، وحجٍ . وثانيهما: ما يؤديه الصوفي في ضوء اجتماعه مع الأشياخ والمريدين والسالكين وصحبته لهم من الذكر والمذاكرة العلم والتعرض للأنوار والتعرف على الأسرار، والتزام الصوفي بهذا القسم من لوازم الترقي في الطريق الصوفي.

٣– ويؤدى الاجتماع الصوفي وظائف إصلاحية، وتربوية، واجتماعية مهمة؛ لذا اهتم كبار الصوفية –على مر القرون – بالحديث عن الاجتماع الصوفي بالتفصيل وذلك ببيان أهميته، وحكمه، وحكمته، وآدابه. ومن بين هؤلاء

المتصوفة الأعلام الإمام ابن عجيبة– رضي الله عنه – وذلك عند شرحه لمنظومة الشيخ ابن البنا السرقسطي المساماة (المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية) فقد تعرض الإمام ابن عجيبة في شرحه المسمى(الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية) للحديث بالتفصيل عن الاجتماع الصوفي وذلك في ثلاثين بيتًا من أبيات المنظومة، ويهدف هذا البحث إلى التعرف على تناول الإمام ابن عجيبة لقضية الاجتماع الصوفي من خلال شرحه المذكور .

أسباب اختيار موضوع البحث:

من أسباب اختياري لهذا الموضوع ما يلي:

١–رغبتي في تخصيص دراسة في التصوف الإسلامي؛ حيث خلت رسالتيَّ للحصول على درجتي (التخصص ، والعالمية) من دراسة التصوف الإسلامي وقضاياه، الأمر الذي دفعني –في مرحلة الترقية العلمية – إلى اختيار هذا الموضوع في علم التصوف الإسلامي؛ لتطلعي للبحث في التصوف الإسلامي وأعلامه، ويأتي موضوع الاجتماع الصوفي من أهم موضوعات التصوف، كما يأتي الإمام ابن عجيبة –رحمه الله – من أشهر أعلام التصوف الإسلامي.

٢–دراستي لمقرر (علم اجتماع التربية) ضمن المقررات الدراسية اللازمة للحصول على درجة الماجستير في التربية (تخصص أصول التربية) كلية التربية جامعة عين شمس ؛ ذلك المقرر الذي تضمنت مفرداته الدراسية عددًا من النظريات الإجتماعية التربوية، فكان مما أثار انتباهي نحو هذا المقرر خلوه من التعرض لنظريات الاجتماع الديني ومنها الاجتماع الصوفي؛ ذلك الأمر الذي جعلني أحاول دراسة موضوع الاجتماع الصوفي من وجهة نظر علم من أعلامه وهو الإمام ابن عجيبة – رحمه الله – .

٣-مشاهدتي لبعض حلقات الذكر للطرق الصوفية ومشاركتي في بعضها الأمر الذي أثار في داخلي محاولة التعرف على آداب الاجتماعات الصوفية، وعلاقة المجتمعين بعضهم ببعض، وكذلك علاقتهم بشيوخهم في الطريق الصوفي.

منهج البحث :

يعتمد البحث على عددٍ من المناهج هي:

أ-المنهج التاريخي: وذلك عند الحديث عن ترجمة الإمام البنا السرقسطي، والإمام ابن عجيبة-رحمهما الله ورضي عنهما-.

ب-المنهج الاستقرائي: وذلك عند تتبع وجمع جميع المواضع التي تحدث فيها الإمامان: ابن البنا السرقسطي، وابن عجيبة عن الاجتماع الصوفي في كلٍ من المنظومة وشرحها .

ج-المنهج الوصفي: وذلك عند عرض تناول الإمام ابن عجيبة للاجتماع الصوفي وما يتعلق به من مسائل على نحو مرتب ومنظم . ثم عرض أهم النتائج والتوصيات المتعلقة بموضوع البحث، مع نظرة استشرافية تتمثل في عرض عدد من الأفكار البحثية التي يمكن أن تكون – من وجهة نظري- محلًا للبحث والدراسة .

الدراسات السابقة:

رُغم كثرة الدراسات العلمية عن فكر الإمام ابن عجيبة-رحمه الله – وتعددها إلا أنني لم أجد -في حدود -دراسةً اختصت بعرض آراء الإمام ابن عجيبة في الاجتماع الصوفي من خلال شرحه لمنظومة المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية للإمام ابن البنا السرقسطي-رحمه الله-.

خطة البحث :

يشتمل البحث على مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة .

المقدمة وفيها: قضية البحث، وأسباب اختياره، ومنهجه، والدراسات السابقة، وخطته.

والتمهيد فيه الحديث عن ما يلي:

أولًا: المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية (الناظم – والمنظومة)

ثانيًا: الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية (الشارح – والشرح) .

ثالثًا: أبيات المنظومة في الاجتماع الصوفي .

المبحث الأول: مبادىء الاجتماع الصوفي عند الإمام ابن عجيبة من خلال شرحه للمباحث الأصلية . وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: أهمية الاجتماع الصوفي والترغيب فيه .

المطلب الثاني: سبب اجتماع أهل التصوف، والفرق بينه وبين اجتماع أهل العلم الظاهر.

المطلب الثالث: وقت الاجتماع .

المطلب الرابع: حكمة الاجتماع .

المطلب الخامس: فضل الاجتماع .

المطلب السادس:نتيجة الاجتماع .

المطلب السابع:الرد على منكري الاجتماع .

المبحث الثاني: آداب الاجتماع الصوفي عند الإمام ابن عجيبة من خلال شرحه للمباحث الأصلية . وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: أهمية الآداب وفضيلتها في الطريق الصوفي .

المطلب الثاني: أصناف من يُتأدب معهم عند الاجتماع .

المطلب الثالث : آداب الصوفية المجتمعين في الكلام والعمل .

المطلب الرابع: آداب الصوفية المجتمعين في خدمة الأشياخ والإخوان .

المطلب الخامس: آداب الصوفية المجتمعين في العلم .

المطلب السادس: آداب الصوفية المجتمعين في المعاشرة .

المطلب السابع: شروط الأخوة وآدابها .

المطلب الثامن: ما يُتجنب فعله عند الاجتماع .

وأخيرًا : خاتمة البحث وفيها أهم النتائج ، وأهم التوصيات، والمقترحات البحثية. ثم قائمة بأهم المصادر والمراجع .

التمهيد:

أولًا: المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية (الناظم – والمنظومة)

١-ناظم منظومة (المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية) هو: الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف التجيبي المعروف بـ " ابن البنا السرقسطي " بضم القاف نسبةً إلى سرقسط بلدة تخوم الجزيرة . ولم تسعفنا المصادر بترجمة له إلا ما ذكره الشيخ زروق –رحمه الله– [١] في مقدمة شرحه للمنظومة حيث قال: " مؤلف هذه الأرجوزة هو: الشيخ الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن البنا السَّرَقُسطِي، لم يكن مشهورًا بالعلم مع ما له فيه من القدم الراسخ الذي دلَّ عليه كلامه بعد في عجائب مدينة فاس؛ إذ كان من عامتها، ولم نقف على تاريخ وفاته ولا زمانه، غير أن الظن الغالب أنه قريب العهد، رحمة الله عليه ورضوانه ." [٢]

[١] الشيخ زروق : هو الشيخ أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المالكي الشهير بـ (زروق) وُلد الثاني والعشرين من شهر محرم سنة (٨٤٦هـ) في مدينة فاس بالمغرب . من أشهر مؤلفاته : عدة شروح للحكم العطائية ، قواعد التصوف ، النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية . وغير ذلك ، توفي –رحمه الله– في الثاني عشر من شهر صفر سنة (٨٩٩هـ) في قرية تكرين من قرى مسراته من عمل طرابلس الغرب وقبره مشهور بها . **انظر في ترجمته بالتفصيل** كتاب فضيلة الأستاذ الدكتور / طه الدسوقي حبيشي –رحمه الله ورضي عنه وأرضاه– الذي خصصه ؛ للترجمة للشيخ زروق – رحمه الله– وعنوانه : أحمد زروق " سيرة ومسيرة " ، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م .

[٢] الشيخ أبو العباس أحمد زروق الفاسي ، اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية ، تحقيق د. محمد عبد القادر نصار ، أ.عبد الله جمال ، القاهرة ، دار الإحسان ، ٢٠١٥م . ص ٥٧

وقد علق الإمام ابن عجيبة على كلام الشيخ زروق بعد نقله له في مقدمة شرحه للمنظومة قائلًا: " قلتُ: وكم من عارفٍ كبير بقي تحت أستار الخمول حتى لقي اللهَ، بل كلما عظم قدر العارف عند الله خفي أمره على الناس؛ لأن الكنوز لا تكون إلا مدفونة ، فإن ظهرت نهبت وتشتت أمرها وذهب سرها، وابن البنا هذا غير صاحب الحساب[٣]، فإنه ابن البنا الصوفي، توفي بمراكش سنة إحدى وعشرين من القرن الثامن الهجري كما ذكره صاحب الجذوة . [٤] " [٥]

٢- و منظومة (المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية) هي: قصيدة من بحر (الرجز) [٦] تقع في تسع وخمسين وأربعمائة بيت، وتشتمل على مقدمة وخمسة فصول، كما نبه الناظم على ذلك حيث قال:

١٢	فهو على الجملة والتفصيل	منحصر في خمسة فصول
١٣	أولها: في أصله ، والثاني	في فضله على مدى الأزمان

[٣] يَقصدُ: أبا العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المعروف بـ " ابن البنا المراكشي " ت ٧٢١هـ .

[٤] لم أقف عليه، ولا على مؤلفه المذكور .

[٥] الشيخ أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صحح نصوصه ونسق فصوله : أ.د / حذيفة محمد المسير ، القاهرة ، مكتبة الإيمان ، الطبعة الأولى ، ١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م . ص ٢٩ .

[٦] بحر الزجر : أقرب الأوزان الشعرية إلى النثر ، وأكثرها تعرضًا للتحوير والتغيير ، ووزنه

مستفعلن مستفعلن مستفعلن	مستفعلن مستفعلن مستفعلن

ومن الرجز نوع يسمى " المزدوج " " وهو ما الُلتزم في شطريه حرف أو حرفان تصريعًا أو تقفية ، ويُعرف ما يُنظم على هذا البحر بالأرجوزة . بحور الشعر العربي ، الدكتور غازي يموت ، دار الفكر اللبناني ، ط ٢ ، ١٩٩٢م . ص ١٢٠.

١٤	وثالث الفصول في أحكامه	وحين يستوي على أقدامه
١٥	والرابع الرد على من رده	وليس يدري شأنه وقصده
١٦	وخامس يعمل كيف صيرا	حتى غدا بين الأنام منكرا

فهذه الفصول هي:

الفصل الأول: في أصل التصوف.

الفصل الثاني: في فضل علم التصوف.

الفصل الثالث: في أحكام التصوف.

الفصل الرابع: في الرد على من رده .

الفصل الخامس: في فقراء العصر ومتشبهي الوقت .

ثم خاتمة .

ثانيًا: الفتوحات الإلهية (الشارح – والشرح) .

١–الإمام ابن عجيبة: [٧]

أ–هو الإمام العلّامة الصوفي المُفسر أحمد بن محمد بن المَهدي بن الحسين بن محمد المعروف بـ (ابن عجيبة) والمُكنى بـ (أبي عباس) الحَسني نسبًا ، التطواني دارًا، الفاسي تعلمًا، المالكي مذهبًا، الشاذلي طريقةً .

[٧] راجع في ترجمة الإمام أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني : الفهرسة ، لابن عجيبة ، تحقيق دكتور / عبد الحميد صالح حمدان ، دار الغد العربي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م ، ص ٢٦ وما بعدها ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، محمد بن محمد بن مخلوف ، تعليق : عبد المجيد خيالي ، لبنان ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م ، ١ / ٥٧١ وما بعدها ، اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة ، محمد بشير ظافر الأزهري ، مطبعة الملاحي ، الطبعة الأولى ، ١٢٣٤هـ ، ١ / ٧٠ وما بعدها ، معجم المؤلفين ، رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ،١٤١٤هـ – ١٩٩٣م ،٢ / ١٦٣ وما بعدها.

ب- وُلد في سنة ستين أو إحدى وستين ومائة وألف هجرية (١١٦٠ هـ أو ١١٦١هـ) – حسبما أورده في فهرسته – في قرية (أَعْجَبيش) من قبيلة (أنجرة) التي تسكن الجبال المحيطة بمدينة (تَطوان) الواقعة في أقصى شمال المغرب على مسافة عشرة كيلومترات من ساحل البحر الأبيض المتوسط .

ج- نشأ في أسرة مشهورة بالصلاح والولاية، واجتهد في العبادة وتحصيل العلم منذ الصغر، فحفظ القرآن الكريم، ودرس علوم العربية والعلوم الشرعية، وتصوف في الطريقة الشاذلية .

د-من أشهر مؤلفاته: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية. وغيرها .

هـ- وبعد حياة حافلة بالعلم والعمل تُوفي الإمام ابن عجيبة –رحمه الله- سنة ١٢٢٤هـ ، وكانت وفاته في مدينة (غُمارة) أثناء زيارته لشيخه البوزيدي فأصابه وباء الطاعون فمات به ودُفن في غمارة، وقد ظل قبره في غمارة إلا أن تم نقله إلى موطنه في قرية (الزميج) من قبيلة (أنجرة) وما زال قبره هناك مقصودًا إلى اليوم .

٢- أما عن شرحه للمنظومة فسماه بـ (الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية) فيقول ابن عجيبة في وصف منظومة المباحث الأصلية وناظمها ، وعن سبب كتابة شرحه لها : " فأعظم الوسائل إلى الله سلوك طريق الأدب والتربية ، وأقرب ما يوصل العبد إلى مولاه صحبة العارفين ذوي الهمم العالية والتربية النبوية والتأدب بين يدي المشايخ أهل النزاهة والتصفية على اختلاف مقاماتهم وأحوالهم، والبحث عن سيرهم وأحوالهم، والتأدب بآدابهم المرضية والتحقق بأخلاقهم وشيمهم الزكية . وأجل من بحث عن سننهم الدارسة، ومآثرهم السنية، الفقيه الصوفي ابن البنا السرقسطي في (مباحثه الأصلية) لله دره، لقد حرر فيه المعنى، وبين فيه المبنى، فبلغ فيه غاية القصد والمنى ، بلفظ مختصر

بديع، ونظم سلس رائق رفيع ، بَين فيه أصول الطريق ، وأظهر معالم التحقيق ، فأردتُ –بعون الله– أن أضع عليه شرحًا متوسطًا، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، يُبين المعنى، ويحقق المبنى ... وسميته (الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية) " [٨]

ثالثًا: أبيات المنظومة في الاجتماع الصوفي .

جاء الحديث عن الاجتماع الصوفي في منظومة المباحث الأصلية لابن البنا السرقسطي في ثلاثين بيتًا في الفصل الثالث (أحكام التصوف) جاءت على النحو التالي:

الفصل الثالث : في أحكام التصوف .

الثاني : في حكم الاجتماع:

١٢٨	فكان إذ ذاك اجتماع القوم	له بعلم عمل عن علم .
١٢٩	ولم يكن ذلك عن روية	بل يحضر القوم على السوية.
١٣٠	ولم يكن أيضًا لدى العشاء	إذ فيه نهي وهو للإغفاء .
١٣١	وافتقروا فيه للائتلاف	ليعلم المستوفي حال الوافي.
١٣٢	لا خير فيمن لم يكن ألوفا	ولم يكن لغيره مألوفا .
١٣٣	ومن يكن يصحب غير جنسه	فجاهل والله قدر نفسه .
١٣٤	أفضل للمرء جلوس وحده	ولا يكن جليس سوء عنده .
١٣٥	قد يرتجي الشفاء للسقيم	مهما يكن ملازم الحكيم .
١٣٦	ومن ينازع فاطرح نزاعه	فالدين مبني على الجماعة.

[٨] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ٢٨-٢٩

الخامس : في آداب الاجتماع:

١٦٥	وللطريق ظاهر وباطن	تعرف منه صحة البواطن .
١٦٦	ظاهره الآداب والأخلاق	مع كل خلق ما له خلاق .
١٦٧	باطنه منازل الأحوال	مع المقامات لذي الجلال .
١٦٨	والأدب الظاهر للعيان	مع المقامات لذي الجلال .
١٦٩	وهو أيضًا للفقير سند	وللغني زينة وسؤدد.
١٧٠	وقيل من يُحرم سلطان الأدب	فهو بعيد ما تداني واقترب .
١٧١	وقيل من تحبسه الأنساب	فإنما تطلقه الآداب .
١٧٢	فالقوم بالآداب حقًا سادوا	منه استفاد القوم ما استفادوا
١٧٣	إذ نصحوا الأحداث والأصاغر	وحفظوا السادات والأكابر .
١٧٤	واجتنبوا ما يؤلم القلوب	وابتدروا الواجب والمندوب .
١٧٥	وخدموا الشيوخ والإخوانا	وبذلوا النفوس والأبدانا .
١٧٦	وأنصتوا عند المذاكرات	واحترموا الماضي معًا والآت
١٧٧	وسألوا الشيوخ عما جهلوا	ووقفوا من دون ما لم يصلوا .
١٧٨	وعملوا بكل ما قد علموا	وآثروا واغتفروا واحتشموا .
١٧٩	واحتكموا بالعدل والإنصاف	فوردوا كل معين صاف .
١٨٠	وبعضهم كان لبعض عونا	يلقي لديه دعة وأمنا .
١٨١	ينصره في الحق حيث كانا	فإن أساء قارضه إحسانا .
١٨٢	وليس حط الرأس من آدابه	بل الصواب كان في اجتنابه
١٨٣	بل هو مبني على القصاص	لمن أراد حسبه الخلاص .
١٨٤	وليس في قيام الاستغفار	أصل صحيح واصطلاح جار
١٨٥	والقصد من هذا الطريق الأدب	في كل حال منه هذا المذهب

المبحث الأول

مباديء الاجتماع الصوفي عند الإمام ابن عجيبة من خلال شرحه لمنظومة المباحث الأصلية.

نتناول في هذا المبحث الحديث عن مبادىء الاجتماع الصوفي عند الإمام ابن عجيبة من خلال شرحه لأبيات منظومة الماحث الأصلية، وذلك ببيان كل من: أهمية الاجتماع، والترغيب فيه، وسببه، والفرق بينه وبين اجتماع أهل العلم الظاهر، ووقته، وحكمته، وفضله، ونتيجته، وأخيرًا رد الإمام ابن عجيبة على منكري الاجتماع الصوفي . وتفصيل ذلك في المطالب الآتية :

المطلب الأول: أهمية الاجتماع والترغيب فيه.

تحدث الإمام ان عجيبة في مطلع شرحه لأبيات منظومة (المباحث الأصلية) الواردة في الاجتماع فبين أهمية الاجتماع بأنه أعظم أركان التصوف فقال: " اعلم أن الاجتماع عند القوم هو أعظم الأركان وأهمها، حتى قال بعضهم: التصوف مبني على ثلاثة أركان: الاجتماع، والاستماع، والاتباع . فكل من انفرد عن الإخوان واشتغل بنفسه لا يجيء منه شيء . " [٩]

ثم ذكر ابن عجيبة بعض النصوص الشرعية من القرآن الكرم والسنة النبوية المطهرة المرغبة في الاجتماع فقال: " وقد رغب الله في الاجتماع قال – تعالى {وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ} [١٠] ، وقال – صلى الله عليه وسلم – : (يد الله

[٩] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صـ ١٣٩ .

[١٠] سورة المائدة ، الآية (٢) .

مع الجماعة) [١١] ، وعن معاوية – رضي الله عنهما – قال: خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومَن به علينا ، قال : والله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذلك ، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمةً لكم ، ولكنه جاءني جبريل فأخبرني أن الله يُباهي بكم الملائكة) [١٢] وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :(ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله – عز وجل – لا يريدون بذلك إلا وجهه ، إلا ناداهم مناد من السماء : أن قوموا مغفورًا لكم ، قد بدلت سيائتكم حسنات.) [١٣] ، وقال – أيضًا – صلى الله عليه وسلم –: (يا أيها الناس : إن لله سرايا من الملائكة تجول وتقف على مجالس الذكر في الأرض ، فارتعوا في رياض الجنة . قالوا : وأين رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر .فاغدوا وروحوا في ذكر الله ، وذكروا أنفسكم : من كان يريد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه) [١٤] " [١٥] . ثم يُعلق ابن عجيبة على قوله – صلى الله عليه وسلم – في الرواية

[١١] أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب (الفتن) باب (ما جاء في لزوم الجماعة) حديث رقم ٢١٦٦ . عن ابن عباس –رضي الله عنهما– وقال : هذا حديث غريب ، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه .

[١٢]أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب (الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب (فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر) حديث رقم ٢٧٠١ .

[١٣] أخرجه أحمد في مسنده ، باقي مسند المكثرين ، مسند أنس بن مالك –رضي الله عنه– جـ ١٩ ، صـ ٤٣٧ ، حديث رقم ١٢٤٥٣، حقق هذا الجزء وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط،عادل مرشد. قال المحققان في الحكم على الحديث:حديث صحيح لغيره.

[١٤] أخرجه الإمام الحاكم في المستدرك على الصحيحين،حديث رقم (١٨٦٣) وقال:حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

[١٥] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صـ ١٣٩– ١٤٠ .

الأخيرة (وذكروا أنفسكم) قائلًا: " أي: ليذكر بعضُكم بعضًا ، فالمذاكرة هي أعظم الذكر؛ لأن فيها علمًا وذكرًا لله ، ومجالس الذكر تصدق بمجلس العلم والذكر والمذاكرة. " [١٦]. ثم ذكر ابن عجيبة في حديثه عن الترغيب في الاجتماع بعد ما عرضه من النصوص الشرعية ترغيب مشايخ التصوف في الاجتماع فقال: " وما زال الأشياخ – رضي الله عنهم – يوصون أصحابهم بالاجتماع ويحضون عليه ، وكان للشاذلي – رضي الله عنه – [١٧] تلميذ يحضر مجلسه ، ثم انقطع عنه ، فلقيه ذات يوم ، فقال: ما لك انقطعت عنا ؟ فقال له: قد استغنيت بك عنك ، فقال له – رضي الله عنه –: لو استغنى أحدٌ بأحد لاستغنى الصديق عن مجلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم يفارقه حتى مات . فانقطاع الفقير عن الاجتماع أو عن الشيخ من أعظم القواطع . " [١٨]

[١٦] السابق، صـ ١٤٠ .

[١٧] أبو الحسن الشاذلي: هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف بن هرمز الهذلي الشاذلي المغربي، الزاهد، الضرير، أبو الحسن ، نزيل الأسكندرية، وشيخ الطائفة الشاذلية، انتسب –في بعض مؤلفاته–إلى علي بن أبي طَالب. ولد في بلاد "غمارة" بريف المغرب عام واحد وتسعين وخمسمائة (٥٩١)هـ، وطلب الفقه والتصوف بتونس، ثم سكن شَاذِلة –قرب تونس– فنسب إليها. أخذ الطريق عن شيخه عبدالسلام بن مشيش، وأخذ عنه الشيخ أبو العباس المرسي. مات في طريقه إلى الحج بصحراء عيذاب–بوادي حميثرة– ست وخمسين وستمائة (٦٥٦)هـ ، ودفن هناك. مما أثر عنه: حزب البر، حزب البحر، رسالة الأمين فى الوصول لرب العالمين. انظر: لطائف المنن في مناقبِ الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن لابن عطاء الله السكندري ، تحقيق الدكتور: عبد الحليم محمود ، دار المعارف ، ص ٥٧ تاريخ الإسلام للذهبي ج١٤ ، ص ٨٢٩ ، طبقات الأولياء لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن أحمد بن الملقن ، تحقيق: نور الدين شريبة ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الثانية سنة (١٤١٥هـ-١٩٩٤م) ، ص ٤٥٨ ، الأعلام للزركلي ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ .

[١٨] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صـ١٤٠ .

المطلب الثاني

سبب اجتماع أهل التصوف ، والفرق بينه وبين اجتماع أهل العلم الظاهر

١٢٨	فكان إذ ذاك اجتماع القوم	له بعلم عمل عن علم .
١٣٩	ولم يكن ذلك عن روية	بل يحضر القوم على السوية

١-تحدث الإمام ابن عجيبة عن سبب اجتماع المريدين في الطريق الصوفي بالشيوخ بأن سبب ذلك الاجتماع سعي المريدين إلى تعلم إتقان العمل بعد إتقان العلم من شيوخهم . يقول ابن عجيبة في ذلك عند شرحه لقول السرقسطي:

فكان إذ ذاك اجتماع القوم له بعلم عمل عن عمل .

" كان اجتماعهم – أي: المريدين – عليه – أي: الشيخ – بسبب اتقان العمل بالعلم الذي حصلوه على علم ويقين منهم أنه على بينة من ربه، ولم يكن اجتماعهم عليه على جهل به وتقليد وشك وترديد . "

٢- بعد أن بين الإمام ابن عجيبة سبب الاجتماع شرع في التفريق بين اجتماع أهل التدريس بأستاذهم وبين اجتماع المريدين بشيخهم فإن اجتماعهم بالشيخ لا يكون عن اتفاق بينهم جميعهم بخلاف اتفاق طلاب التدريس بأستاذهم في وقت ومجلس واحد بل على الشيخ أن يراعي التفرقة بين المريدين بأن يجعل له مجلسين يُفرق فيهما بين أهل البدايات وأهل النهايات. يقول ابن عجيبة تعيقًا على قول السرقسطي .

ولم يكن ذلك عن روية بل يحضر القوم على السوية

" الروية والتروي هي: المشاورة في الأمر والاتفاق عليه ، يعني: أن القوم لم يكن اجتماعهم عن اتفاق وروية على أن يحضروا في مجلس واحد ووقت واحد، ويكون أهل البدايات وأهل النهايات على السوية في مجلس واحد كما يفعل أهل التدريس للعلم الظاهر، بل كانت الشيوخ تُذكر كل فرقة على حدتها، وتخاطب كل واحد على قدر فهمه. فينبغي للشيخ أن يكون له مجلسان: مجلس يخص أهل

النهايات ، ومجلس يعم به أهل البدايات والنهايات، وينغي له – أيضًا – ألا يلتزم مجلسًا واحدًا لا يتعداه، بل مهما اتفق اجتماعهم ذكرهم في أي وقت كان، ومهما قدم عليه قوم عليه قوم ذكرهم، فقد يكون منهم من يحب الاستعجال في سفره، ومنهم من يريد المقام، ولا ينبغي أن يحتجب عن الفقراء حتى لا يتضرروا بانتظاره، فقد كان – عليه الصلاة والسلام – لا يحتجب عن أصحابه، ولم يكن له بوابون ولا مشاورون ." [١٩]

ويرى الإمام ابن عجيبة أن تفرقة الشيخ بين أهل البدايات والنهايات في المجلس إنما يكون حال قلة عدد المريدين أما حال كثرتهم فللشيخ أن يجمعهم في مجلس واحد مع مراعة أن يجعل لكل صنفٍ منهم ما يخاطبه به . يقول ابن عجيبة في ذلك: " ما ذكره الناظم – السرقسطي – من تفريق المذاكرة إنما يأتي مع قلة الفقراء، وأما مع كثرتهم فيجعل لهم مجلسًا واحدًا ، ويُذكر فيه من البدايات والوسط والنهايات، وكل واحد يشرب من منهله چ ژ ژ ڑ ڑ کک چ [٢٠] هذا ما أدركنا أشياخنا عليه حسن كثرة الأتباع. " [٢١]

المطلب الثالث: وقت الاجتماع.

١٣٠	**ولم يكن أيضًا لدى العشاء**	**إذ فيه نهي وهو للإغفاء .**

تحدث الإمام ابن عجيبة عن وقت الاجتماع بألا يكون عند وقت العشاء ولا عند أوقات الصلاة كما أشار إلى ضرورة الاقتصاد في مدته فقال عند شرحه لقول ابن البنا السرقسطي السابق: " قلتُ: الإغفاء هو: النوم، يعني أن اجتماع القوم لم يكن عند وقت العشاء؛ لأن ذلك الوقت جعله الله للنوم والراحة ، قال –

[١٩] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صـ١٤١ .
[٢٠] سورة البقرة ، الآية (٦٠) .
[٢١] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صـ١٤١ .

تعالى – : هُو ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا [٢٢] وقال – تعالى – : وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا [٢٣] ؛ وذلك ليقوم للصلاة ناشطًا، ولا سيما عند قصر الليل، وكذلك – أيضًا – لا ينبغي أن يكون عند أوقات الصلاة؛ لأن ذلك يؤدي إلى خروج وقتها، ولا ينبغي تطويل المجلس" [٢٤]

المطلب الرابع: حكمة الاجتماع .

١٣١	وافتقروا فيه للائتلاف	ليعلم المستوفي حال الوافي

عرض الإمام ابن عجيبه أثناء شرحه للبيتين السابقين من المنظومة لعددٍ من الأمور التي تتحقق بالاجتماع:

الحكمة الأول: ذكر ابن عجيبة أن أول هذه الأمور التي يحققها الاجتماع أن بالاجتماع يقف كل فرد من أفراد المجتمعين – على اختلاف أحوالهم – على حاله في العلم والمقام فيقول: " افتقروا للاجتماع لأمور منها: معرفة حال الإنسان في اللم والحال والمقام، فإن النفس قد تغلط في نفسها، فتظن أنها أدركت مقام الأكابر، وهي مقيمة مع الأصاغر ، فإذا اجتمع مع من هو أنهض منه حالًا ، وأكثر منه علمًا، عَلِمَ حاله، وعرف مقامه ، فيَجِدُ في سيره ، ويتحقق قدره ... وكذلك الفقير الكامل إذا رأى من هو دونه في الحال أو المقام حمد الله وشكره وطلب الزيادة من مولاه، وهذا معنى قوله (ليعلم المستوفي في حال الوافي) فالمستوفي الذي هو الناقص، تنعشه رؤية الكامل الذي هو الوافي في العلم والحال؛ لاستشعاره نقصه وقصوره عن رتبة الوافي فينهض في العمل، وينافسه

[٢٢] سورة يونس ، الآية (٦٧)

[٢٣] سورة الفرقان ، الآية (٤٧)

[٢٤] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صـ١٤٢ .

في الحال قال – تعالى – وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَفِسُونَ [٢٥] والوافي يعرف قدر منة الله عليه فيما أدركه فيشكره فيزيده الله – تعالى – على ما أعطاه، ويتشرف إلى مقام أعلى فيوصله الله إليه؛ إذ السير لا نهاية له ." [٢٦]

الحكمة الثانية: أن الاجتماع يحقق النشاط والقوة ويُزيل الكسل والفتور. يقول ابن عجيبة في هذه الحكمة: " ومن الأمور الداعية للاجتماع: حصول النشاط والقوة؛ فإن دوام الوحدة تبرد صاحبها، وتقوي عليه الحس والكسل إن كان في محل البدايات، وقد تحصل له فترة أو وقفة، فإذا اجتمع من الإخوان قوي حاله وزال كسله، ولذلك قال – تعالى – وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ [٢٧] ورغب – عليه الصلاة والسلام – في حضور مجالس الذكر كما تقدم . " [٢٨]

الحكمة الثالثة: تحقيق العلم والمعرفة. يقول ابن عجيبة في ذلك: "ومنها – أي: الأمور الداعية للاجتماع –: استفادة العلم والمعرفة، وأما العلم فمن المذاكرة، وأما المعرفة فمن المشاهدة .. والنظر إلى العلماء ومجالسة الحكماء عبادة كبيرة . " [٢٩]

المطلب الخامس: فضل الاجتماع.

١٣٢	**لا خير فيمن لم يكن ألوفًا**	**ولم يكن لغيره مألوفًا**
١٣٣	**ومن يكن يصحب غير جنسه**	**فجاهل والله قدر نفسه .**
١٣٤	**أفضل للمرء جلوس وحده**	**ولا يكن جليس سوء عنده .**

[٢٥] سورة المطففين، الآية (٢٦) .
[٢٦] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صـ١٤٢ .
[٢٧] سورة المائدة ، الآية (٢) .
[٢٨] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صـ١٤٣ .
[٢٩] السابق ، الصفحة ذاتها.

١–تحدث الإمام ابن عجيبة عن فضل الاجتماع عند تعليقه على قول الناظم:

لا خير فيمن لم يكن ألوفًا ولم يكن لغيرِهِ مألوفا .

" لفظ الحديث (المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف) [٣٠] وقال – أيضًا – عليه الصلاة والسلام –: (إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا، الموطئين أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون) [٣١] فقوله صلى الله عليه وسلم – (الموطئين أكنافًا) معناه: المأمون جانبهم بحيث لا يخاف منهم خيانة ولا جناية، الذين يألفون الناس ويألفهم الناس، وهو معنى قول الناظم (لا خير فيمن لم يكن ألوفا) بغيره، ولم يكن مألوفا لغيره، أي يألفه غيره. " [٣٢]

٢– ويُفرق الإمام ابن عجيبة بين أحوال الصوفية في ألفتهم للناس فيرى أن العارفين الراسخين لابد أن يتألفوا بالناس جميعهم أما المريدين السائرين ليس لهم ذلك يقول ابن عجيبة في تفسير هذه التفرقة: " ينبغي التفصيل في أحوال الناس: أما العارفون الراسخون فلا يليق بهم إلا التآلف بالناس والتصبر لهم؛ لأنهم يأخذون نصيبهم من كل شي، وقد وجههم الله – تعالى – لينفع عباده، فينبغي لهم أن يألفوا الناس ويألفهم الناس، وكذلك الصالحون المتوجهون لإصلاح الناس بالتبرك والدعاء، والعلماء المتوجهون لتعليم العباد، فلابد من صبرهم على جفوة

[٣٠] الحديث بلفظه المذكور: ذكره الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال في نقد الرجال جـ ٥، صـ ٣٠٠ ، وابن حبان في المجروحين من المحدثين ، جـ ٢ ، صـ ٤٨ . وجاء في مسند الإمام أحمد (المؤمن مَأْلَف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف) ، باقي مسند المكثرين ، مسند أبي هريرة –رضي الله عنه– جـ ١٥، صـ١٠٦–١٠٧ ، حديث رقم ٩١٩٨.قال المحقق في الحكم على الحديث:اسناده حسن.

[٣١] أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ، من حديث أبي هريرة–رضي الله عنه–جـ ٧، صـ ٣٥٠ .حديث رقم (٧٦٩٧)

[٣٢] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صـ١٤٣ .

المتعلمين والسائلين، ومن تعلق بهم من المسلمين . " [٣٣]

ويقول في شأن المريدين السائلين وموقفهم من ألفة الناس: " وأما المريدون السائرون فلا ينبغي لهم أن يألفوا الناس كلهم؛ فإن ذلك يقطعهم عن ربهم، وكل فقير مال للرياسة والسياسة وتوجه للناس قبل كماله فلا يجيء منه شيء، وإنما يألف الفقير من ينهضه حاله، ويدل على الله مقاله " [٣٤]

٣- ويؤكد ابن عجيبة أهمية اختيار المتصوف لمن يجالسه فيقول معلقًا على قول الناظم:

ومن يكن يصحب غير جنسه فجاهل والله قدر نفسه .

" قلتُ: وإنما كان من يصحب غير جنسه جاهلًا قدر نفسه؛ لأن النفس وهي الروح ياقوتة رفيعة، جعلها الله في صدف بشريتك، فإذا صحبت بها من هو أحسن منك فقد صنتها ورفعتها واعتنيت بشأنها؛ لأن صحبة الأبرار تصيرك من الأخيار ، وإذا صحبت بها من هو أسوأ منك وأخسر منك فقد بخستها وحططت قدرها؛ لأن الطباع تسرق الطباع، والمرء على دين خليله، وصاحب المرء رقعة من ثوبه، فلا يصح أن يكون من غير نوعه. " [٣٥]

ثم أشار الإمام ابن عجيبة إلى ضرورة تجنب جليس السوء وأن الوحدة خير من جليس السوء فيقول معلقًا على قول الناظم:

أفضل للمرء جلوس وحده ولا يكن جليس سوء عنده .

" قلتُ: أشار إلى قوله – عليه الصلاة والسلام –(الجليس الصالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من الجليس السوء، والجليس الصالح مثل العطار إن لم

[٣٣] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صـ١٤٤ .

[٣٤] السابق، الصفحة ذاتها.

[٣٥] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صـ١٤٤ .

تنل من طيبه أصبت من ريحه، والجليس السوء مثل الحداد إن لم تصب من شرره أصابك من نتنه) [٣٦] " [٣٧]

المطلب السادس : نتيجة الاجتماع .

١٣٥	قد يُرتجى الشفاء للسقيم	مهما يكن ملازم الحكيم .

تناول الإمام ابن عجيبة في شرحه للبيت السابق من المنظومة لنتيجة الاجتماع مبينًا أن نتيجته تتمثل في تحقيق الشفاء لما يصيب قلوب المريدين من الأمراض والعلل وذلك بمجالستهم للشيخ الذي هم بمنزلة الحكيم.

يقول ابن عجيبة في ذلك: " قلتُ: لا أعظم شفاءً لأمراض القلوب وعللها من صحبة العارفين، والدخول تحت جناح تربيتهم، وملازمة حضانتهم بالصدق والمحبة، والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح ... والمراد بالحكيم في كلام الناظم: شيخ التربية؛ لأنه طبيب حكيم . " [٣٨]

المطلب السابع : الرد على منكر الاجتماع .

١٣٦	ومن يُنازع فاطرح نزاعه	فالدين مبني على الجماعة .

بعد أن انتهى الإمام ابن عجيبة من عرضه لأهمية الاجتماع، وسببه، ووقته، وحكمته، وفضله، ونتيجته، نجده يرد في شرحه لهذا البيت من النظم على منكري الاجتماع مؤكدًا ترغيب الإسلام في تحقيق الاجتماع والجماعة فيقول: " يريد – الناظم – من نازع الفقراء وأنكر عليهم اجتماعهم فلا تسمع لقوله، بل انبذه وراء

[٣٦] لم أقف على الحديث بالنص المذكور . وقد وجدتُ عند السيوطي في الجامع الصغير عن أبي ذر الغفاري –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم – قال : " الوحدة خير من جليس السوء ، والجليس الصالح خير من الوحدة ، وإملاء الخير خير من السكوت ، والسكوت خير من إملاء الشر " حديث صحيح ، حديث رقم ٩٦٤٧ .

[٣٧] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صـ١٤٦ .

[٣٨] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صـ ١٤٧ – ١٤٨ .

ظهرك؛ فالدين مبني على الجماعة قال – صلى الله عليه وسلم –:(الجماعة رحمة والفرقة عذاب) [٣٩] ، وقال – صلى الله عليه وسلم –:(يد الله مع الجماعة) [٤٠] وقال – أيضًا – صلى الله عليه وسلم – :(من فارق الجماعة قيد شبر فمات ، مات ميتة جاهلية) [٤١] إلى غير ذلك من الأحاديث المرغبة في الاجتماع. " [٤٢]

المبحث الثاني: آداب الاجتماع الصوفي عند الإمام ابن عجيبة من خلال شرحه لمنظومة المباحث الأصلية.

نتناول في هذا المبحث الحديث عن عرض الإمام ابن عجيبة لمجموعة الآداب المتعلقة بالاجتماع الصوفي وذلك من خلال شرحه لأبيان منظومة المباحث الأصلية الواردة في هذا الموضوع. وسينتظم هذا المبحث المخصص للحديث عن آداب الاجتماع في المطالب الثمانية الآتية:

المطلب الأول: أهمية الآداب وفضيلتها في الطريق الصوفي .

تحدث الإمام ابن عجيبة عن أهمية الآداب في الطريق الصوفي وذلك عند شرحه للأبيات التالية من المنظومة:

١٦٥	وللطريق ظاهر وباطن	تعرف منه صحة البواطن .

[٣٩] أخرجه أحمد في مسنده ، مسند الكوفيين ، حديث النعمان بن بشير ، جـ ٣٠، صـ ٣٩٠، حديث رقم ١٨٤٤٩، حقق هذا الجزء شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم، إبراهيم الزيبن، محمد رضوان، قال المحققون في الحكم على الحديث:هذا إسناد ضعيف، فيه أبو عبد الرحمن لم نعرفه، وبقية رجاله ثقات.

[٤٠] تقدم تخريجه .

[٤١] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب (الإمارة) باب (وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة) حديث رقم ١٨٤٩ .

[٤٢] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، صـ ١٤٨ .

١٦٦	ظاهره الآداب والأخلاق	مع كل خلق ما له خلاق .
١٦٧	باطنه منازل الأحوال	مع المقامات لذي الجلال .
١٦٨	والأدب الظاهر للعيان	مع المقامات لذي الجلال .
١٦٩	وهو أيضًا للفقير سند	وللغني زينة وسؤدد.
١٧٠	وقيل من يُحرم سلطان الأدب	فهو بعيد ما تداني واقترب .
١٧١	وقيل من تحبسه الأنساب	فإنما تطلقه الآداب .
١٧٢	فالقوم بالآداب حقًا سادوا	منه استفاد القوم ما استفادوا .

١–يبدأ الإمام ابن عجيبة شرحة للأبيات السابقة من المنظومة والمتعلقة بالحديث عن أهمية الآداب وفضيلتها بالتفرقة بين ظاهر الطريق الصوفي وباطنه وأن كلًا من ظاهر الطريق الصوفي وباطنه له متعلقه فيقول: " المراد بالطريق هو طريق السلوك إلى ملك الملوك وهي طريقة الصوفية ولها ظاهر وباطن ، فظاهرها ما يتعلق بإصلاح الجوارح الظاهرة ، وباطنها ما يتعلق بإصلاح العوالم الباطنية. " [٤٣]

٢– ثم يذكر الإمام ابن عجيبة أن الآداب متعلق ظاهر الطريق ، ثم يذكر حقيقتها عند الصوفية فيقول: " الطريق له ظاهر، وهو ما يظهر على الجوارح من الآداب المرضية والأخلاق السنية، والأعمال الزكية، وله باطن وهو ما يكمن في القلوب من الواردات الإلهية، والأحوال الربانية، والمقامات اليقينية، والعلوم اللدنية، والأسرار القدسية ... وأن ظاهر الطريق: الآداب، وحقيقته – أي: الأدب– عند الصوفية–: حفظ الحواس، وضبط الأنفاس أي الأوقات، والحق أنه: تهذيب الجوارح وتصريفها في أنواع المصالح. " [٤٤]

[٤٣] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص١٧٨ .
[٤٤] السابق، الصفحة ذاتها.

٣- ويفصل الإمام ابن عجيبة الحديث عن أدب الجوارح على النحو التالي:

أ-يقول في أدب اللسان: " أن يكون رطبًا بذكر الله – تعالى –، وبذكر الإخوان بخير والدعاء له، وبذل النصيحة والوعظ، ولا يكلمهم بما يكرهون، ولا يغتب، ولا ينم، ولا يشتم، ولا يخض فيما لا يعنيه، وإذا كان في جماعة تكلم معها ما داموا يتكلمون فيما يعنيهم، فإذا أخذوا فيما لا يعنيهم تركهم وأمسك، ويتكلم في كل مكان بما يوافق الحال. " (٤٥)

ب- ويقول في آداب السمع: " ألا تسمع الفحش والخنا والغيبة والنميمة والمناكر، بل يسمع الذكر والوعظ والحكمة وما يعود إليه بالفائدة دينً ودنيا، ويحسن الإصغاء إلى مكلميه ومخاطبيه ملتذًا بذلك. " (٤٦)

ج- ويقول في آداب البصر:" الغض عن المحارم، وعن عيوب الإخوان، وعن المنكرات والمحرمات؛ فإن الله – تعالى – يقول: يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ (٤٧) " (٤٨)

د- ويقول عن آداب القلب: " ومن آداب القلب: حسن الظن بالله ، وبجميع المسلمين ، وتطهيره من الغل والحسد والخيانة وسوء الظن وسوء المعتقد فإنها من خياناته قال الله –تعالى – إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً (٤٩) " (٥٠)

(٤٥) ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص١٧٩ .

(٤٦) السابق، الصفحة ذاتها.

(٤٧) سورة غافر ، الآية (١٩) .

(٤٨) ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٧٩ .

(٤٩) سورة الإسراء ، الآية (٣٦) .

(٥٠) ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٨٠

هـ–ويقول في آداب اليدين: " البسط بالبر والإحسان، وخدمة الإخوان، وألا يستعين بهما على معصية الله –تعالى –. " [٥١]

و– ويقول في آداب الرجلين: " السعي بهما في صلاح نفسه وإخوانه، وألا يمشي بهما مرحًا، ولا يختال، ولا يتبختر، ولا يزهو؛ فإنها مما يبغضه الله – تعالى–، وألا تستعين بهما على المعاصي. " [٥٢]

٤– ثم ينتقل الإمام ابن عجيبة إلى الحديث عن الطريق في جانبه الباطني المقابل للظاهري مبينًا أن باطن الطريق يتعلق بالمقامات والأحوال وأنها أمور باطنية لا يعلمها إلا الله –تعالى– ، مُفرقًا بين الأحوال والمقامات[٥٣] فيقول: " باطن الطريق هو محل تنزل الأحوال والمقامات، وهي القلوب والأسرار؛ لأنها باطنية لا يعلمها إلا الله. والفرق بين الحال والمقام: أن الحال يتحول فيذهب ويجيء، بخلاف المقام فإنه رسوخ وتمكين . " [٥٤]

[٥١] السابق، الصفحة ذاتها.

[٥٢] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٨٠

[٥٣] المقام هو: مقام العبد بين يدى الله– عز وجل– فيما يقام فيه من العبادات، و المجاهدات، والرياضات، والانقطاع إلى الله –عز وجل– ، من المقامات : التوبة، الورع، والزهد، والفقر، والصبر، وغيره ، وأما الحال فهو :ما يحل بالقلوب ،أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار، أو الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم، أو الحال هو الذكر الخفي، ومن الأحوال : القرب ، والمراقبة ، والمحبة، والخوف، والرجاء، والشوق ، والأنس، والهيبة، وغيرها.انظر في تعريف الحال والمقام : كتاب تحفة السالكين ، للسمنودى ص١٨٨– ١٨٩ ، معراج التشوف إلى حقائق التصوف لابن عجيبة . صـ٤٨ – ٤٩ ، معجم اصطلاحات الصوفية للكاشانى ص ٨١، ١٠٧، اللمع ، للطوسى ص ٦٥–٦٦ ، التصوف الإسلامي بين الأصالة والتبعية للاستاذ الكتور حسن محرم الحويني.المبحث الخامس.صـ ١٢٥ وما بعدها.

[٥٤] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٨١

٥- وبعد تفرقة الإمام ابن عجيبة بين ظاهر الطريق وباطنه ومتعلق كل منهما نجده يؤكد على أهمية العلاقة بينهما ببيان أن صحة الظاهر دليل على صحة الباطن فيقول: " إن صحة الظواهر تدل على صحة الباطن؛ فما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر ففي الحديث عنه – صلى الله عليه وسلم –(من أسر سريرة ألبسه الله رداها) [٥٥] فأحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن، فالأسرة تدل على السريرة ، وما فيك ظهر على فيك ، وكل إناء بالذي فيه يرشح ، وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره يلوح ، فتهذيب الجوارح يدل على تهذيب القلوب، وآداب الظاهر يدل على آداب الباطن. " [٥٦]

٦- ويعود الإمام ابن عجيبة للحديث مرة أخرى عن الأدب فيتحدث عن فضيلته للفقير والغني فيقول: " إنما كان الأدب سندًا للفقير – أي: معتمدًا عليه – ويرتفع به إلى الأكابر دينًا ودنيا؛ لأن القلوب مجبولة على حب أهل الإحسان والتواضع والحلم، فإن أراد – الفقير– اللحوق بأكابر الدين كان أدبه معهم سببًا في التحاقه بهم، وإن أراد اللحوق بأكابر الدنيا كان أدبه – أيضًا – سببًا في لحوقه بهم؛ لأن القلوب مجبولة على حب أهل اتلإحسان – كما تقدم–. وإنما كان – الأدب – للغني زينة وشرفًا؛ لأن الغني محبوب بالطبع، فإذا كان أديبًا متأدبًا زاد عندهم شرفًا." [٥٧]

٧- ويؤكد الإمام ابن عجيبة فضيلة وشرف الأدب للصوفية بأنهم ما نالوا ما نالوه من الشرف والعلوم والمعارف والأنوار والأسرار والكرامات إلا بآدابهم مع الله، ومع رسوله –صلى الله عليه وسلم–، ومع أشياخهم، ومع المسلمين. فيقول:

[٥٥] لفظ الحديث : " ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداها " أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ، باب الجيم ، من اسمه جندب ، جندب بن عبد الله ، حديث رقم ١٧٠٢ .

[٥٦] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٨٣.

[٥٧] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٨٣

" ما ساد القوم وشرفوا إلا بالآداب مع الله، ومع رسوله –صلى الله عليه وسلم– ومع أشياخهم، ومع سائر المسلمين.

فالأدب مع الله –تعالى–بامتثال أمره واجتناب نهيه والاستسلام لقهره.

والأدب مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم–باتباع سنته، وإيثار صحبته، والاهتداء بهديه، والتخلق بأخلاقه.

والأدب مع الأشياخ بحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، وصدق المحبة.

والأدب مع المسلمين بأن تحب لهم ما تحب لنفسك أو أكثر. " [٥٨]

المطلب الثاني: أصناف من يُتأدب معهم عند الاجتماع .

تحدث الإمام ابن عجيبة عن أصناف من يتأدب معهم الصوفية عند الاجتماع بهم وهم أربعة أصناف(الأحداث– الأصاغر– السادات– الأكابر) وذلك عند شرحه للبيت التالي من المنظومة :

١٧٣	إذ نصحوا الأحداث والأصاغر	وحفظوا السادات والأكابر .

أولًا: حديث الإمام ابن عجيبة عن الصنف الأول(الأحداث) :

تحدث الإمام ابن عجيبة عن الصنف الأول ممن يتأدب معه الصوفية عند الاجتماع ألا وهو صنف(الأحداث) فعرف به وبأقسامه وبحكم مصاحبة كل قسم وطريقة نصحه مستشهدًا في ذلك بكلام الشيخ زروق–رحمه الله– في شرحه لأبيات منظومة المباحث الأصلية [٥٩]فيقول ابن عجيبة: " أولهم: الأحداث، قال الشيخ زروق–رضي الله عنه–: هو من لا نبات له، وهم ثلاث:

[٥٨] السابق، ص ١٨٥

[٥٩] انظر : الشيخ زروق ، اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٨٣ –١٨٥ .

الحدث سنًا. وهو: الصغير الذي لم يميز حقائق الأمور، فله ولوع بكل ما يراه أو يسمعه من مستحسن فلا تؤمن غائلته في الانقلاب، ثم للنفوس ولوع به من حيث الجمال الصوري أو من حيث التعلق الروحاني، وقد يكون ذلك لا يشعر به الشخص ، وقد يكون من حيث شعوره. ولصحبتهم آفات حاضرة من حيث شغل البال وحفظه، ثم من حيث اشتغال النفس بالميل له، ثم من حيث كمون الضرر في النفس بصحبته ، فلا خير فيها، ولابد من نصحه عند إقباله بتعريف الأصول وترك الفضول. والأصل في صحبته الجواز وإنما يُمنع لهذه العوارض التي ذكرها."[٦٠]

ثم يتحدث الإمام ابن عجيبة عن القسم الثاني من صنف الأحداث وهو الحدث عقلًا فيقول: " وهو الذي لا يثبت على حقيقة ، ولا ينتهج على طريقة، يتبع كل ناعق، ويتنسم كل ناشق، وهذا أعظم ضررًا من الذي قبله؛ لفقدان الحقيقة فيه، وانتفاء قابليتها منه. ونصحه: بتعريف الوجه الذي يقصده، وبيان الحق بوجه واضح؛ حتى تقوم الحجة وتظهر المحجة. وإن كان على الفطرة سهل علاجه، وقربت هدايته. " [٦١]

ثم يتحدث الإمام ابن عجيبة عن القسم الثالث من صنف الأحداث وهو الحدث دينًا فيقول: " وهو مع كل قوم بما هم عليه ، يميل مع كل ريح، ويُسمى الإمّعة، ونصحه: بدعواه إلى إفراد الوجهة، وتذكيره بما فيه ذلك من الضرر. " [٦٢]

[٦٠] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٨٦

[٦١] السابق،ا الصفحة ذاتها.

[٦٢] السابق.

ثانيًا: حديث الإمام ابن عجيبة عن الصنف الثاني(الأصاغر):

يتحدث الإمام ابن عجيبة عن تعريف الأصاغر، وطريقة نصحهم فيقول: " والمراد بهم: صغار السن الذين لم يبلغوا سن الحداثة والتمكن فيها. ونصحهم: بغرس الخير في قلوبهم." [٦٣]

ثالثًا: حديث الإمام ابن عجيبة عن الصنف الثالث(السادات) :

يتحدث الإمام ابن عجيبة عن تعريف السادات، وطريقة نصحهم فيقول: " والمراد بهم: العباد، والزهاد، والصالحون، والعلماء العاملون، والمريدون السالكون الذين لم يبلغوا مرتبة المشيخة.

ونصح الأول –العباد–: بدلالته على الإخلاص وإسقاط الحظوظ النفسانية والروحانية. ونصح الثاني–الزهاد–: بتصحيح النية ، وإفراد الوجهة مع ما نصح به الأول. ونصح الثالث–الصالحون–: بتحقيق التوبة والاستقامة. ونصح الرابع –العلماء العاملون–: بتحقيق الإخلاص، وتوفير الصبر والحلم والتواضع. ونصح الخامس –المريدون السالكون–: بالغيبة عن السوى أو بإسقاط الهوى ، ومحبة المولى، وحفظهم بالتعظيم والتوقير والاحتشام، وبإعطاء الرتبة حقها من كل وجه، ولا يستحقر أحدًا أقامه الله في مقام من المقامات كيفما كان. " [٦٤]

رابعًا: حديث الإمام ابن عجيبة عن الصنف الرابع(الأكابر):

يتحدث الإمام ابن عجيبة عن الصنف الرابع(الأكابر) فيقول: " والمراد بهم المشايخ. وحفظهم بثلاثة أمور:

الأول: اتباع ما رسموه ، وإن لم يفهم معناه .

الثاني: عدم البحث عما جاؤوا به إلا من حيث التفهم .

[٦٣] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٨٦ –١٨٧

[٦٤] السابق، ص ١٨٧.

الثالث: موالاة من والاهم، ومعاداة من عاداهم. " [٦٥]

المطلب الثالث: آداب الصوفية المجتمعين في الكلام والعمل .

تحدث الإمام ابن عجيبة عن آداب الصوفية عند الاجتماع في الكلام والعمل وذلك عند شرحه لبيت المنظومة التالي:

١٧٤	واجتنبوا ما يؤلم القلوب	وابتدروا الواجب والمندوب .

أولًا: حديث الإمام ابن عجيبة عن آدابهم في الكلام :

تحدث الإمام ابن عجيبة عن آداب الصوفية في الكلام وذلك عند شرحه لقول صاحب المنظومة في البيت السابق (واجتنبوا ما يؤلم القلوب) مبينًا تجنب الصوفية لما يؤذي من القول حتى لو كان وعظًا مع حرصهم على اللين في القول مع الأهل والإخوان فيقول: " هذا – أي : تجنب ما يؤلم من القول – عام مع جميع المسلمين، فلا يتكلم مع مسلم بما يوجعه في قلبه ، ولو كان نصحًا ؛ فقد قال –تعالى–:فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ [٦٦] فالوعظ إنما ينفع إذا كان على وجه الملاطفة والسياسة، ويتأكد ترك ما يؤلم الزوجة والأهل، وكذلك مع الإخوان؛ لأن جبر القلوب في جبر القلوب، وكسر القلوب في كسر القلوب، فمن جبر قلب عبد بإدخال السرور عليه أو هداية إليه جبر الله قلبه، ومن كسر قلب عبد بإدخال الحزن عليه أو تنفيره، كسر الله قلبه، ومن أراد جبر قلوب العباد فليغض عن مساويهم، وليسكت عن عيوبهم. " [٦٧]

[٦٥] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٨٧.

[٦٦] سورة طه ، الآية (٤٤)

[٦٧] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٨٨.

ثانيًا: حديث الإمام ابن عجيبة عن آدابهم في العمل :

تحدث الإمام ابن عجيبة عن آداب المتصوفية في العمل وذلك عند شرحه لقول صاحب المنظومة في البيت السابق(وابتدروا الواجب والمندوب) فقال: " أشار بذلك إلى كمال عبوديتهم ، وأنهم يتبادرون إلى حقوق مولاهم واجبةً كانت أو مندوبة ؛ امتثالًا لقوله–تعالى–: وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ [٦٨] على اختلاف قصدهم: فمنهم: من يقصد الثواب والنجاة من العقاب عاجلًا وآجلًا وهو العوام منهم. ومنهم: من يقصد تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية وهم الخواص أو خواص الخواص، والله –تعالى– أعلم. " [٦٩]

<u>المطلب الرابع: آداب الصوفية المجتمعين في خدمة الأشياخ والإخوان</u> :

تحدث الإمام ابن عجيبة عن آداب الصوفية عند الاجتماع مع الأشياخ والإخوان وذلك عند شرحه لبيت المنظومة التالي:

١٧٥	وخدموا الشيوخ والإخوانا	ويذلوا النفوس والأبدانا .

يعرض الإمام ابن عجيبة لأهمية خدمة الصوفية للشيوخ فيقول: " خدمة الشيوخ قربة عظيمة ومنقبة جسيمة وهي سبب الفوز بالوصول إلى معرفة الحق، ونيل درجات المقربين السابقين. " [٧٠]

ثم يقول عن خدمة الصوفية للإخوان: " وأما خدمة الإخوان فهي: إعانة لهم على ما يعرض لهم من أمور دينية أو دنياوية، بنفسه، أو بماله، أو بجاهه، أو بما يقدر عليه. " [٧١]

[٦٨] سورة آل عمران ، الآية (١٣٣)

[٦٩] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٨٨ – ١٨٩ .

[٧٠] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٨٩ .

[٧١] السابق، ص ١٩٠.

المطلب الخامس: آداب الصوفية المجتمعين في العلم :

تحدث الإمام ابن عجيبة عن آداب الصوفية في طلبهم العلم وذلك عند شرحه لأبيات المنظومة التالية:

١٧٦	وأنصتوا عند المذاكرات	واحترموا الماضي معًا والآت.
١٧٧	وسألوا الشيوخ عما جهلوا	ووقفوا من دون ما لم يصلوا
١٧٨	وعملوا بكل ما قد علموا	وآثروا واغتفروا واحتشموا .

فقد عرض الإمام ابن عجيبة –في ضوء شرحه للأبيات السابقة – لجملةٍ من آداب الصوفية في العلم هي: الإنصات عند المذاكرة – احترام الماضي والآتي –السؤال عما جُهِلَ – العمل بما عُلِمَ – الإيثار ، والغفران ، والاحتشام .

وبيان هذه الآداب على النحو التالي:

أولًا: الإنصات عند المذاكرة ؛ " فلأنه يدل على كمال العقل والرزانة .. ولا ينبغي السكوت بالكلية؛ إذ لا يعرف الشيخ حاله ولا مقامه إلا بكلامه. " [٧٢]

ثانيًا: احترام الماضي والآتي: " **أما احترام الماضي** فالمراد ما تقدم من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين والعلماء العاملين ، واحترامهم ألا يُذكروا إلا بالإحسان، وأن يلتمس لهم أحسن المذاهب، ومن احترامهم: الاستغفار والترضي عنهم قال تعالى وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ [٧٣] " [٧٤]

[٧٢] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٩١.

[٧٣] سورة الحشر ، الآية (١٠).

[٧٤] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٩١.

وأما احترام الآتي فمعناه " ألا يقطع المادة ويحجر القدرة ، فيقول: انقطعت الأولياء ولم يبق أحد، وانقطعت التربية ولم يبق من يصلح لها، أو كان الناس وليس هذا زمانهم، أو نحو ذلك من سوء الظن بالله وبعباده. " [٧٥]

ثالثًا: السؤال عما جُهِلَ؛ " فلأن طلب العلم واجب على كل مسلم، وهو معلوم من الدين بالضرورة، ووقع الإجماع على أنه لا يحل لامرئ أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، وإنما يسألون عما يحتاجون إليه في الحال من عمل أو حال أو مقام دون ما يتعلق بالمستقبل من المقامات وهو معنى قوله –أي: الناظم– (ووقفوا من دون ما لم يصلوا) يعني دون الذي لم يدركوه بالمنازلة والذوق ، فلا يسألون عنه ؛ لأنه لا تدركه عقولهم، وإن أدركته اتصلت به على غير وجه التحقق ، فكان ضرره أكثر من نفعه " [٧٦]

رابعًا: العمل بما عُلِمَ؛ " فلأن العمل نتيجة العلم ، فعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية ، وعمل بلا جناية. " [٧٧]

خامسًا: الإيثار، والغفران، والاحتشام: يُبين الإمام ابن عجيبة هذه الآداب الثلاثة التي يتأدب بها الصوفية في العلم فيقول: " وقوله (وآثروا) يعني: أنهم آثروا على أنفسهم في الكلام، فيقدومن أكبرهم علمًا أو سنًا، ويؤثرون أيضًا على أنفسهم في صدور المجالس والمحافل وكل ما فيه تعظيم. وقوله (اغتفروا) أي: سامحوا وعفوا عن جفوة الإخوان الذين لم يتهذبوا، وصبروا على غلظتهم في المذاكرة وغيرها. وقوله: (واحتشموا) أي: تركوا المنازعة والمخاصمة والملاججة

[٧٥] السابق، ص ١٩٢.

[٧٦] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٩٢.

[٧٧] السابق، الصفحة ذاتها.

بالغضب؛ لأن ذلك يؤدي إلى الشرور والعداوة والحقد، فتخرج المذاكرة حينئذ إلى المجادلة والمراء. " [٧٨]

المطلب السادس: آداب الصوفية المجتمعين في المعاشرة .

تحدث الإمام ابن عجيبة عن آداب الصوفية في المعاشرة وذلك عند شرحه لبيت المنظومة التالي:

١٧٩	واحتكموا بالعدل والإنصاف	فوردوا كل معين صاف .

فيؤكد الإمام ابن عجيبة على أن الحاكم لعلاقة الصوفية فيما بينهم هو الحق وإقامة العدل في جميع شئوونهم فيقول: " أشار المصنف –رحمه الله–إلى أن الفقراء –يعني : الصوفية–لا يداهن بعضهم بعضًا في الحق ، ولا ينافق بعضهم بعضًا ، بل يأتمرون بينهم بالمعروف ويتناهون عن المنكر، فيحكمون بالعدل على بعضهم بعضًا، وعلى أنفسهم ، ومن توجه عليه حق من الحقوق أنصف وأذعن وانقاد للحق ، ولا يتعصب ولا يتحامى حمية الجاهلية. " [٧٩]

ثم يؤكد الإمام ابن عجيبة على أن تحقيق الصوفية للعدل في جميع شؤونهم فتح الله لهم ما شاء من أنوار العلوم وأسرار الفهوم. فيقول: " قوله (فوردوا كل معين صافي) يعني : أن الصوفية لما حكموا بالعدل، واتصفوا بالإنصاف شربوا من العلوم أعذبها وأصفاها؛ لأن القلوب إذا صفت وتركت وتطهرت من الدعوى والمكابرة أشرقت فيها أنوار العلوم، ولاحت فيها أسرار الفهوم، فأخذت من العلوم أصفاها، ومن الأنوار أبهاها، ومن الأسرار أسناها وأوفاها . " [٨٠]

[٧٨] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٩٢.

[٧٩] السابق، ص ١٩٣.

[٨٠] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٩٣ –١٩٤.

المطلب السابع: شروط الإخوة وآدابها:

تحدث الإمام ابن عجيبة عن شروط الأخوة وآدابها وذلك عند شرحه لأبيات المنظومة التالية :

١٨٠	وبعضهم كان لبعض عونا	يلقي لديه دعة وأمنا .
١٨١	ينصره في الحق حيث كانا	فإن أساء قارضه إحسانا .

يشير الإمام ابن عجيبه في شرحه للبيتين السابقين إلى علاقة التعاون بين الإخوة في الطريق الصوفي وأن سبب أخوتهم تحقيق ذكر الله –تعالى–والتعاون في سائر أبواب الخير . فيقول: " أشار المصنف –رحمه الله– إلى أن الصوفية كانوا يتعاونون على البر والتقوى؛ لأن ذلك المقصد جمعهم ، فيُعين أخاه بنفسه ، وماله ، وجاهه ، وعلمه، وعمله، وهمته، وحاله، ومناصحته، ومواداته، ومصادقاته، إلى غير ذلك، وما كان اجتماعهم إلا ليتعاونوا على ذكر الله وسائر أبواب الخير. " [٨١]

المطلب الثامن: ما يُتجنب فعله عند الاجتماع :

وأخيرًا تحدث الإمام ابن عجيبة عن بعض الأمور التي يجب تجنب فعلها عند الاجتماع وذلك عند شرحه للأبيات التالية من المنظومة:

١٨٢	وليس حط الرأس من آدابه	بل الصواب كان في اجتنابه
١٨٣	بل هو مبني على القصاص	لمن أراد حسبه الخلاص .
١٨٤	وليس في قيام الاستغفار	أصل صحيح واصطلاح جار
١٨٥	والقصد من هذا الطريق الأدب	في كل حال منه: هذا المذهب

وقد ذكر الإمام ابن عجيبة في شرحه للأبيات السابقة أمرين مما يجب على الصوفية تجنب فعلها في اجتماعهم وهما: حط الرأس – قيام الاستغفار. وبيان حديث ابن عجيبة عنهما على النحو التالي:

[٨١] السابق، ص ١٩٤ .

أولًا: حط الرأس. يقول الإمام ابن عجيبة في بيان معناه والتأكيد على تجنب فعله: " أما حط الرأس فهو أن الفقير إذا أساء الأدب مع أحد من الفقراء أو غييرهم يأتي إليه ويحط رأسه بين يديه ؛ ليؤدبه أو يقتص منه، أو يسمح له. وهذا أمر لم يرد في الشريعة ولا جرى به عمل في الطريقة، فالصواب اجتنابه. " [٨٢]

ثانيًا: قيام الاستغفار: ثاني الأمرين الذين يؤكد الإمام ابن عجيبة على ضرورة تجنبه هو فعل (قيام الاستغفار) ويوضح ابن عجيبة معناه محذرًا منه فيقول: " وأما قيام الاستغفار فهو: أن الفقير إذا أساء في حق الفقراء أو غيرهم، وأراد التوبة والاستغفار قام على رؤوس الفقراء معترفًا بذنبه ومظهرًا للاستغفار، ومعتذرًا مما صنع. وهذه الحالة لا مستند لها من السنة فتركها أولى إلا لضرورة. " [٨٣]

وفي نهاية شرح الإمام ابن عجيبة لأبيات منظومة المباحث الأصلية المتعلقة بآداب الاجتماع نجده يعود ليؤكد على أهمية الآداب في الطريق الصوفي فيقول: " الطريق مبنية على الآداب، فمن لا أدب له لا طريق له، ومن أساء الأدب مع الأحباب طُرِدَ إلى الباب، ومن أساء الأدب في الباب طُرِدَ إلى سياية الدواب. " [٨٤]

[٨٢] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٩٧ .
[٨٣] ابن عجيبة ، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص ١٩٨ .
[٨٤] السابق، الصفحة ذاتها.

خاتمة البحث

بعد محاولة البحث التعرف على تناول الإمام ابن عجيبة –رحمه الله– لقضية الاجتماع الصوفي وذلك من خلال شرحه لمنظومة المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية والمسمى بـ (الفتوحات الإلهية في شرح المباجث الأصلية)، لنا أن نعرض لأهم النتائتج التي توصل إليها البحث، ولأهم التوصيات، ولعددٍ من الموضوعات البحثية المقترحة.

أولًا: أهم نتائج البحث:

١–يزخر التراث الصوفي الإسلامي بالعديد من الشخصيات المتميزة التي أثرت التراث الصوفي وأثرت في مجتمعاتها، ومن أبرز هذه الشخصيات الإمام ابن عجيبة –رحمه الله– الذي يُعد إمامًا من أئمة التصوف الإسلامي الذين أثروا المكتبة التراثية الصوفية بالعديد من المؤلفات القيمة.

٢–تمثلت أهمية البحث في اعتباره محاولة لإثراء دراسات علم الاجتماع الديني في جانبه الصوفي السلوكي في أحد الموضوعات المهمة في علم التصوف ألا وهو موضوع الاجتماع الصوفي؛ حيث ابتعد بعض الباحثين المتخصصين في الدراسات الصوفية عن تناول التصوف من منظور اجتماعي.

٣– أن الاجتماع في الطريق الصوفي يُنشط سير الصوفي إلى الله –تعالى– ويُحدث التهذيب الخُلقي، ويُخلص الإنسان من غفلته، ويكون الاجتماع بمثابة نقطة انطلاق للصوفي يُمكن أن تسهم في إكسابه الفضائل وإقلاعه عن الرزائل، وتمكن لنفسه في جانبها العلوي من الانتصار على جسده في جانبه السفلي.

٤– أن أفكار الإمام ابن عجيبة –رحمه الله– حول الاجتماع تناولت جل ما يتعلق بالاجتماعي الصوفي من أهميته، وسببه، ووقته ، وحكمته، وفضله، ونتيجته، وآدابه .

٥- تجلى لنا في البحث الجانب الصوفي الدفاعي عند الإمام ابن عجيبة؛ حيث وجدناه يرد على والرد على من أنكر الاجتماع عند الصوفية مستدلًا على مشروعيته بالأحاديث النبوية الشريفة الدالة على فضل الاجتماع.

٦-كما تجلى من خلال البحث – أيضًا – منهج الإمام ابن عجيبة الصوفي السني المُلتزم بالكتاب والسنة؛ حيث أنكر الإمام ابن عجيبة وحذر مما دُس على الطريق الصوفي من الأمور المبتدعة مما يعكس لنا مكانة الإمام ابن عجيبة في التصوف السني المستند في أصوله على القرآن الكريم، والسنة النبوية المشرفة.

٧- أن اجتماع الصوفي مع شيوخه وإخوانه في الطريق يجعله إن غفل عن خير أو معروف لن يُعدم أن يجد من ينبهه إليه، وإن قصر في أداء خير يجد من يعينه عليه، ويجعله يشعر بأن المجتمع حوله لا يسمح له بالانحراف، وهذا الشعور يجعل من السهل عليه أن يقاوم رغباته وأهواءه.

ثانيًا: أهم توصيات البحث:

١-العمل على نشر القيم الروحية في المجتمعات الإسلامية الأمر الذي يسهم في مواجهة العديد من المشكلات النفسية والاجتماعية والأخلاقية التي تسببت فيها نزعات الحداثة والإلحاد في العصر الحديث والتي عملت على تفريغ الحياة الإنسانية من معناها الصحيح.

٢- زيادة توجه الباحثين نحو تحقيق التراث الصوفي، ونشر الكتب والأبحاث التي تتناول قضايا التصوف الإسلامي.

٣- إجراء الدراسات البينية بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية –ومنها علم الاجتماع وعلم النفس وعلم التربية وغيرها – حيث تمكن تلك الدراسات البينية تحقيق الاستفادة بين نتائج الدراسات الشرعية ونتائج الدراسات الإنسانية مما يسهم في إعادة الإنسان إلى موضعه الشريف الذي ارتضاه الله –تعالى– له ويقوم بدوره في تحقيق العبودية لله –تعالى–وعمارة الأرض.

ثالثًا: أهم المقترحات البحثية:

وأذيل هذه الخاتمة بأبرز النقاط التي أثارها فينا هذا البحث وتحتاج – من وجهة نظري – لبحوث مستقبلية في تخصص قسمنا المبارك قسم العقيدة والفلسفة بكليات جامعة الأزهر الشريف ، أرجو أن يضطلعَ بها الباحثون وتكون مجالًا لاهتمامهم في اطروحات رسائل التخصص والعالمية، وأبحاث الترقيات العلمية، ومن أهمها:

١–علم الاجتماع الصوفي بين النظرية والتطبيق.

٢–الفكر الاجتماعي الصوفي في (فترة زمنية محددة) أو عند (علم من أعلام السادة الصوفية –أو طريقة من الطرق الصوفية).

٣– الجانب الصوفي الدفاعي عند الإمام ابن عجيبة.

٤–القيم الاجتماعية عند الإمام ابن عجيبه.

٥–المضامين الأخلاقية في كتاب الفتوحات الإلهية للإمام ابن عجيبة.

٦– فلسفة تزكية النفس الإنسانية في الفكر الصوفي.

والحمدُ لله أولًا وآخرا.

قائمة المصادر والمراجع. [٨٥]

(القرآن الكريم – جل جلال مَنْ أنزله –)

- أحمد زروق " سيرة ومسيرة "، الأستاذ الدكتور / طه الدسوقي حبيشي، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م
- الأعلام" قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين "، خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، بيروت، دار العلم للملايين، ط ١٥ ، ٢٠٠٢ م .
- بحور الشعر العربي، الدكتور غازي يموت، دار الفكر اللبناني، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.
- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، شمس الذهبي، تحقيق دكتور / بشار عوّاد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ م.
- تحفة السالكين ودلائل السائرين لمنهج المقربين، الشيخ محمد المنير السمنودى، طبعة مكتبة الثقافة الدينية .
- التصوف الإسلامي بين الأصالة والتبعية، الاستاذ الدكتور حسن محرم الحويني، بدون بيانات .
- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، الإمام جلال الدين بن أبي بكر السيوطي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.
- سنن الترمذى، أبو عيسى محمد بن عيسى، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د . ت .

[٨٥] قائمة المصادر والمراجع مرتبة بحسب اسم المؤلِّف ترتيبًا هجائيًا.

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، الشيخ محمد بن محمد بن مخلوف، تعليق: عبد المجيد خيالي، لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- طبقات الأولياء، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن أحمد بن الملقن، تحقيق: نور الدين شريبة ، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، الشيخ أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، صحح نصوصه ونسق فصوله : أ.د / حذيفة محمد المسير، القاهرة، مكتبة الإيمان، الطبعة الأولى، ١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م .
- الفهرسة، الشيخ أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، تحقيق دكتور / عبد الحميد صالح حمدان، دار الغد العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م .
- لطائف المنن في مناقبِ الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن ، ابن عطاء الله السكندري، تحقيق الدكتور: عبد الحليم محمود، الطبعة الثانية، دار المعارف، بدون تاريخ.
- اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية، الشيخ أبو العباس أحمد زروق الفاسي، تحقيق: د. محمد عبد القادر نصار، أ.عبد الله جمال، القاهرة، دار الإحسان، ٢٠١٥م .
- اللمع، الإمام الطوسى. تحقيق: الدكتور عبد الحليم محمود- طة عبد الباقى سرور، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط، وآخرون مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

- المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم–(صحيح مسلم)، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، المنصورة، مكتبة الإيمان
- معجم اصطلاحات الصوفية، عبد الرزاق الكاشاني، تحقيق: دكتور / عبد العال شاهين، دار المنار، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- المعجم الأوسط، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله ، عبد المحسن الحسيني، الناشر دار الحرمين، القاهرة ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
- المعجم الكبير، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ.
- معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى،١٤١٤هـ – ١٩٩٣ .
- معراج التشوف إلى حقائق التصوف، الشيخ أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، تقديم وتحقيق: الدكتور / عبد المجيد خيإلى، طبعة مركز التراث الثقافي المغربى.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دراسة وتحقيق وتعليق:الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، شارك في تحقيقه:الأستاذ الدكتور/عبد الفتاح أبو سنة، بيروت ، دار الكتب العلمية،الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ–١٩٩٥م.
- اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة، محمد بشير ظافر الأزهري، مطبعة الملاحي، الطبعة الأولى، ١٢٣٤هـ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة .	
قضية البحث.	
أسباب اختيار موضوع البحث.	
منهج البحث.	
الدراسات السابقة.	
خطة البحث .	
التمهيد	
أولًا: المباحث الأصلية (الناظم – والمنظومة)	
ثانيًا: الفتوحات الإلهية (الشارح – والشرح)	
ثالثًا: أبيات المنظومة في الاجتماع الصوفي .	
المبحث الأول: مبادئ الاجتماع الصوفي عند الإمام ابن عجيبة .	
المطلب الأول: أهمية الاجتماع الصوفي والترغيب فيه .	
المطلب الثاني: سبب اجتماع أهل التصوف ، والفرق بينه وبين اجتماع أهل العلم الظاهر .	
المطلب الثالث: وقت الاجتماع .	
المطلب الرابع: حكمة الاجتماع .	
المطلب الخامس: فضل الاجتماع .	
المطلب السادس: نتيجة الاجتماع .	

المطلب السابع: الرد على منكري الاجتماع .	
المبحث الثاني: آداب الاجتماع الصوفي عند الإمام ابن عجيبة	
المطلب الأول: أهمية الآداب في الطريق الصوفي .	
المطلب الثاني: أصناف من يُتأدب معهم عند الاجتماع .	
المطلب الثالث: آداب الصوفية المجتمعين في الكلام والعمل .	
المطلب الرابع: آداب الصوفية المجتمعين في خدمة الأشياخ والإخوان .	
المطلب الخامس: آداب الصوفية المجتمعين في العلم .	
المطلب السادس: آداب الصوفية المجتمعين في المعاشرة .	
المطلب السابع: شروط الأخوة وآدابها .	
المطلب الثامن: ما يُتجنب فعله عند الاجتماع .	
خاتمة البحث	
أولًا : أهم النتائج .	
ثانيًا: أهم التوصيات .	
ثالثًا: أهم المقترحات البحثية .	
قائمة المصادر والمراجع .	
فهرس الموضوعات .	